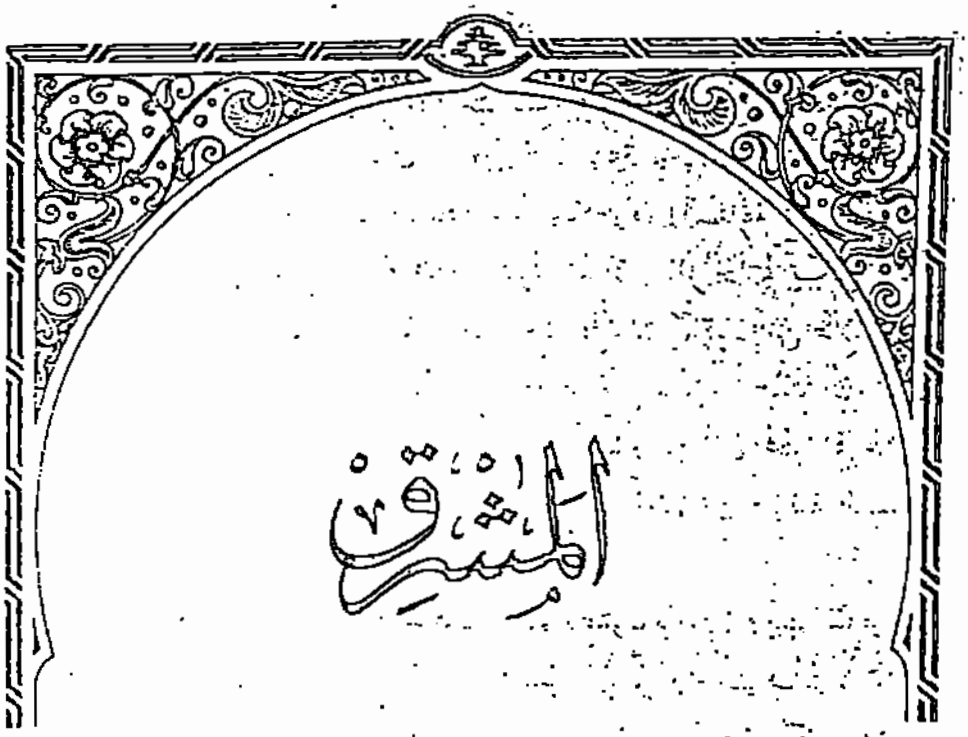

السنة التاسعة والاربعون — تموز – تشرين الاول ١٩٥٥

الآثار المطبوعة (تابع)

جمعها وعلق عليها ونشرها

الاب انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس انطوش جبيل

الشيخ ناصيف اليازجي الشاعر[1]

تمهيد

لا يخفى ان الناس طبقات متباينة في المنازع والمشارب، متفاوتة في المدارك والاقدار بما تخلف بعدها من المآثر والآثار. وكما اننا نرى التباعد في اشباه الوجوه نراه ايضاً في اشباه العقول، لذلك يجري كلٌّ من الناس في الطريق

(١) ذكرنا سبقاً في توطئة «الآثار المطبوعة» (المشرق ٤٨ [١٩٥٤] ص ٦٥٤) هذا التصدير: «الشيخ ناصيف اليازجي يمدح الامير ملحم ابن الامير بشير الشهابي الكبير»

ذيه ... ف ... ي يعي به ... فيه ... وقد يبرع الواحد في فن من الفنون يقصر الآخر عن اللحاق به مهما كدّ وجدّ واستطال ، لأن الفطرة لم تساعده على مجاراته ومباراته فيصدف عنه الى الحرفة والصناعة التي يستسيغها ذوقه وتنزع اليها روحه فيمارسها ويجيدها بطول المران . اما اذا لم يكن راغباً في خوض عبابها ولم تساعده الفطرة او الخبرة على ان يكون من طلابها فمن الصعب عليه اخضاع رقابها . والدليل على هذه البيّنة المتشاعرون المقلّدون الذين يتورّكون ويتعرّجون ويمرّهون ويتحذلقون ادراكاً لشأو المبرّزين المجلّين في مضمار المعارف بما جادت به اذهانهم من جلائل الاعمال التي رفعتهم الى المرتبة السامية . وهل يدنو البغاث الى مطير الأنسر ؟

خذ الشعراء مثالاً للموازنة والمفاضلة ، فمنهم ناظمون مقلّدون ومنهم شاعرون مفطورون . انك تلمس في شعر المقلّدين الناظمين اليبس والجفاف والابتذال والاختزال ، لا يستوقفك معنى يهزّك ولا عبارة ترجرجك من مكان الجمود وتطفر بك الى مقاعد الانس والحبور . وربما أدّى بك شعرهم الى الحيرة والارتباك او الانقباض والامتعاض والتطيّر من نعيهم . فترمي هذا الديوان او تلك القصيدة في سنة المهملات وانت في اشدّ التأثرات مما نالك من اعياء واعنات .

وانت خبير ان الشعراء المفطورين الموهوبين يقودونك ، من حيث لا تدري ، بشعرهم الجذل الرنّان الى اسمى من مجالس الدنان فلا تستفيق من نشوة حتى تفاجئك نشوة متقلّباً على بُسط الزهو والطرب .

والشاعر هو الذي يتغلغل بشعره في البواطن محرّكاً فيها السواكن فتحسّ اذ ذاك بالرعشة المبهجة تعلف كلّ عضو من اعضائك فتنتقل على اجنحة خيالك الى آفاق رحبة عامرة بالنور والجمال .

فالشاعر هو الذي يسمع همس اختلاجات النفس في امواج البحر ، وروعة الجبال ، وسكرة الجمال في جميع خلائق الله ، وفي تغريد الطير وتأييل الافنان ،

والصواب ان ابناء الامير بشير هم الامراء : قاسم وامين وخليل وسعيد ونعمان فقط ، وليس من مجال هنا للتعريف عن الامير ملحم الشهابي الذي مدحه الشيخ ناصيف اليازجي بقصيدة محوكة الطرفين مبنية على احرف الهجاء ، فاقتضى التنبيه

ودعدعة النسيم ، وخرير الينابيع ، وهديل الحمام ، وهدير النهر ، وشكل الزهرة ، ومنظر الشجرة المتمدّدة ، ومسبح القمر بانواره الفضيّة المتسلّلة خلال الاعراس حول الجداول ، ووداع الشمس عند الغروب . وهو الذي يتأثّر بصمت الطبيعة وسكونها المهيب ، ويشاهد البؤس والألم فتستنزل دموعه النوادب ، ويحرك في قلبه مرأى الخرائب . فيستدرّ من كلّ ذلك الوحي والالهام فيطلع بشعره على الناس بالبدائع والروائع . واذا نصبتهُ الاهواء الجائحة فيلجمها بحكمة الرصانة فتمشي مسيرة خاضعة لرويّته . ورحم الله من قال :

الشعرُ صوتُ النفسِ في اعماقها فاذا نطقتَ به فأنت الشاعرُ[1]

وكما تترك الشمس ذيولاً صفراء من الاشعّة عند غروبها تستميلك وتستهويك ، كذلك يترك الشاعر اثرًا عميقاً في نفسك عندما تنتهي من قراءة قصيدته ، فتظلّ منشدًا بعيداها مترنّحاً بحمياها الى ان تفيق على طربة سواها .

والشاعر هو الذي يضحّكك اذا ضحك ، ويبكيك اذا بكى ، ويركبك الجياد اذا امتطى ، ويوقظ فيك النخوة اذا انتخى ، ويسوقك الى الحبّ اذا احبّ ، والى الثغور اذا ثغر ، ويحملك على تصديقه اذا كذب . فانه يقتادك بشعره لموافقته راضياً مسرورًا من حيث لا تفطن انك صحيهُ ورفيقهُ .

وهو النقّاشُ الماهر الذي يجيد رسم الاشياء بمنحاتهِ (بقلمه) الفاره اجادة الفنّان البارع بريشته في تصوير الالوان والخطوط والتناسيم والاشكال جامعًا بين حسن الذوق واصالة الفنّ ، والاثنان يقدّمان لك مثالاً حيًّا على ائتلافها وبراعتها . وكما ان العين لا تشبع من تثبيت النظر في صورة جميلة لرسّام عبقري ، كذلك القلب لا يملّ من تكرار قراءة قصيدة ساحرة المعنى والمبنى لشاعر موهوب .

والشاعر والفنّان هما فرسا رهان في ميدان الابداع والاتقان ، يتباريان ويتنافسان كلٌّ في مضماره ولكنّهما في صعيد واحد يلتقيان ، وكلاهما مجيدٌ في رسم نعومة البشرة واسالة الخدّين ودارة القمرين وترنّح العطفين وما اختلج في مطاوي النفسين وكلّ ما عليه مسحة من الجمال في الخلائق الجامدة والنامية والحسّاسة .

---

١) الشيخ احمد نقي الدين .

ومن الشعراء من لهم قوة الخيال ورقة العاطفة وجمال التصوير ولكنهم يقصرون عن افراغ المعاني في قالب جميل من المباني لضآلة ثروتهم في اللغة ، وهل تروقك جوهرة لمّاعة في صدفة كامدة اللون ؟

ه

واذا اطلقنا على الشيخ ناصيف اليازجي لقب الشاعر فهو اهلٌ له وحقيق به وجدير ، لانه ألّف بين الفنّ والذوق واجتمعت في شعره الخلال الخمس المكتملات فكانت له سلماً للارتقاء الى أعلى الدرجات : رحابة الخيال ، وروعة الجمال ، ورقّة العاطفة ، وسلاسة العبارة وبلاغتها ، وهداية العقل . الخيال الطلق في المعنى ، والحَسَن المتناسق في المبنى ، والانسجام في الكلام المتناوق المستفيق بيقظة المشاعر المستضيئة بالذهن النيّر . واذا ما تصاحبت وتساندت هذه المواهب الخمس في الشاعر فهناك دفقُ المرح يجري فيّاضاً عن جوانبها . .

ان من امعن النظر في شعر الشيخ ناصيف ادرك بداهةً انه شاعرٌ بالفطرة حادّ الذهن متوقّد القريحة سامي المدارك يقول الشعر ارتجالاً في جميع المناسبات والظروف ، ويصدق فيه ما قاله بديع الزمان الهمذاني في زُهير : « يُذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه ، ويدعو القول والسحرُ يُجيبه » وليس من أثر في شعره للغموض والابهام ولا للتكلّف والتقعُّر ، والشاعرية في قصائده رجراجة صخّابة تتدفّق بالشعر الصافي تدفّق الجدول الرقراق في جنّة غنّاء . وان كان هناك من هنات فهي هيّنات بجانب ما له من وفرة الحسنات وما لسواه من الشعراء من كبوات وسقطات .

ان الشيخ ناصيف اليازجي اذا وصف روضةً فيّاحة فباستطاعته ان ينقلها امام ناظريك في شعره بكلّ محاسنها ومفاتنها وانت مستقرٌّ في مكانك ، فيريك الاخضلال والظلال وبدائع الحسن والكمال ، ويسقيك من مائها السلسبيل وينعشك بنسيمها البليل وأرجها العَطِر ، ويُسمعك اناشيد الطيور الراقصة على تصفيق الاغصان المتثنية طَرَباً ودلالاً . واليك ما قال الشيخ في وصف عرس الطبيعة :

هذه عروسُ الزهر تقطها الندى بالدرّ فابتسمت ونادت مبدا

... تنتق ثغرها عن ...	عنك حتى حذفت ... ورد
فتح البنفسجُ مقلةً مكحولةً	مرّ الهزارُ بها فنام وعربدا
ونعرّجت ورقُ الحمام بطوقها	لما رأينَ التاجَ يعلو الهدهدا
باغ الازاهر أنَّ وَرْدَ خدودها	ملكُ الزهور فقابلتهُ سُجّدا
فرنا الشقيق بأعين محمرّةٍ	غضباً وأبدى منهُ قلباً أسودا
بسطَ الغديرُ المـاءَ حتى سـتهُ	بُرْدُ السماءِ قارماً فتحمّـدا
ورأى النباتُ على جوانب أرضهِ	مهداً رطيباً ليّناً فتوسّدا
يا صاحبيَّ تعجّبا للابسٍ	قد حاكها من لم يعدّ لها يدا
كلُّ الثياب يحولُ لونُ صباغها	وصباغُ هذه حين طال تجدّدا[1]

هل من رقّة اصفى من رقّة هذه الابيات في وصف عروس الزهر ؟ وهل من تصوير ادقّ من هذا التصوير ؟ وهل من بلاغة انقى من هذا التعبير ؟

○

واذا خاض الشيخ ناصيف معمعة حربٍ خلتَ نفسك في ساحات احدى المعارك والملاحم تشهد مثار نقعها وانعقاد غبارها وبطولة رجالها ، وتسمع جمجمة خيولها وقعقعة سلاحها وصدى طبولها . فان كنتَ مخلوع الفؤاد فروقةً رعديدًا شعرتَ بالوجيف ، او ذا شجاعةٍ وبأس لبث الحماسة في رأسك ودرتَ دورةً مع الفرسان وشاركتهم في الكرّ والفرّ والطعان .

وهذه قصيدته في محمّد علي باشا والي مصر وابنه ابراهيم باشا التي نشرناها في السنة الماضية[2] ، تصدع بهذه الحقيقة وترفع الشيخ في شعره الى طبقات الشعراء المبرّزين ، ولو لم تكن مصدّرةً باسم نظنتها من نفثات عنترة بن شدّاد في مواقع النزال والجلاد . فاقرأ قصيدته يخاطب محمّدَ علي عزيز مصر :

يا فاتحَ القطرين انت محمّدُ	هل دون فتحك في البلاد مسدَّدُ
العُربُ تشهدُ والحضارةُ قبلها	والزنجُ تشهدُ والجزائر تشهدُ[3]

---

١) النبذة الثانية من ديوان الشيخ ناصيف اليازجي، طبعة بيخانيل رحمه ص ٩٦ جاء في انجيل متى ٦: ٢٨و٢٩ : « اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو ، انها لا تتعب ولا تغزل وانا اقول لكم ان سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها » .

٢) (المشرق ٥٨[١٩٥٤] : ١٦٠) .

٣) العُربُ : يرمز الى حملته على الوهّابيين اذ أسر الامير سعود الكبير وارسله مخفورًا

مهلاً عليك فليس ترضيك العلى حتى يصافح اخمصيك الفرقدُ
جبلٌ بمصرَ الى الحجاز وظلُّهُ لحقَ الشآم وظلَّ منهُ الأبعدُ
لو كنتَ تدري ارضهنَّ تزلزلت ولو ازدجرتَ النيلَ اوشك يحمدُ

ثمَّ يلتفت الشيخ الى ابراهيم باشا ابن محمد علي ويقول مشيرًا الى فتحه حصون عكا :

مَن مثل ابراهيم إلَّا سيفهُ يوم الكريهة والفتى المتأوِّدُ
ارسلت قبل الجيش جيشَ مهابةٍ جيشُ العدوّ لهولهِ يتبدَّدُ
فاثبتْ مكانك وابعث اسمك بعدها وكفى القتال بهِ وانت موسَّدُ
ولقد ضربتَ حصون « عكَّا » التي كانت لهيبتها الفرائصُ ترعدُ
اللهُ اكبرُ ليس دونك قلعةٌ تُخشى ولا صرحٌ أشمُّ تمرَّدُ
خافت جبال الارض منك وقد رأت هذي الفعال بمثلها تتردَّدُ
وتحصَّنت منك الأُسودُ فلا تلمْ قومًا بأغلاق الحصون استنجدوا

ويتخلَّى الشيخ ناصيف الى مدح الامير بشير الشهابيّ الكبير فيقول :

شيخٌ لهُ سنُّ الشيوخ وعقلهم وكأنما هو في الغريمةِ أمردُ
فتكاد تعرفهُ الطريق اذا مشى من فوقها والسيف حين يُجرَّدُ
هو طورُ لبنان العظيم وشخصهُ آل الشهاب فواحدٌ متعدِّدُ
قد مهَّد الجبلَ العصيَّ بسيفهِ قوموا انظروا كيف الجبالُ تُمهَّدُ
وانقاد كلُّ شموس قومٍ فانثنى ينقادُ طوعًا واستراح المقودُ

ثمَّ يختمها به قائلًا :

لا حدَّ دونك في المكارم والعلى وعلى البقاء عليك ليس يُحدَّدُ
فالظلمُ إلَّا من طباعك يُتَّقى والعودُ إلَّا عن جنابك يُحمدُ

=

واذا رثى الشيخ أنَّ وبكى وحنَّ وشكى وتفجَّرت دموعه في شعره تستلفت وتستبكي. ولا يستوقفك بنا استنزف من العبرات حتى تكون شريكهُ وضريبهُ في تصعُّد الزفرات . واذا طالعتَ رثاءه احسستَ بالغُصَّة والمسرَّة معاً . أمَّا الغُصَّة فلأنه عدَّد صفات المرثيّ العالية متململًا عليه ، وجعلك تأسف معه

الى الاستانة حيث عوقب بالموت . والحضارة : الى انتصاراته في بلاد الشام . والزنج : الى فتوحاتهِ في بلاد النُّوبة والسودان . والجزائر : الى احتلاله جزر صورا في بلاد اليونان .

على تغيبه في صفائح الضريح . وما لسرة فلأنه اسس مرثيته حلة منوّرة من مرسل الكلام يلهيك بطلّته ورنّته عن الحزن والأسى ، ذلك ما يكشف عن قدرة الشاعر على التلاعب بالعواطف واستمالتها كيف شاء واراد . واليك بحثاً من رثاء الشيخ للمطران اغناطيوس الدهّان ، فانه من ابلغ المراثي وأرقّها كما يُثبتُ البرهان . قال :

هل بعد يومك عند من لم يصبر ... غير الانين ولوعة المتحسّر
وبمَ انتحال الصبر بعدك او ترى ... غادرتَ قلباً ليس بالمتفطّر
ما كان عندي ان شمساً أغربت ... في الشرق قبلك في التراب الأغبر
حتى وريتَ موسّداً في حفرة ... فمحيتُ بعدك من بقاء المبصر
لا استطيع لذكر لطفك منطقاً ... لو كنتُ انطقُ عن «صحاح الجوهري»
لو ظلّ في عينيَّ دمعٌ واحدٌ ... لكتبتُ حول ثراك خمسةَ اسطر[1]
قد كان يحمدُ منظري بك مسمعي ... طوراً ويحمد مسمعي بك منظري
حتى رجعتُ وقد فقدتُك حامداً ... من ليس سمعاً وليس ببصر
من للبلاغة والبراعة والحجى ... والعلم بعدك والجلاء النيّر

وبعد ان تفجّع الشيخ على الدهّان ما شاء الله ان يتفجّع ، خلع عليه كفناً من الانوار هو متمة للبصائر والابتصار . قال :

لو كنتَ تُنصفُ يا دفيناً في الثرى ... إلّا بطيّ قلوبنا لم تُقبر
وعجبتُ ممّا كفّنوك وانت بي ... كفن من الانوار أبيض عبقري
فعلى ثرى ذاك الضريح تحيّة ... نفحت بعرف الطيّبات المنبري
فلقد خلعتَ عليه ثوب نضارة ... من سندس يقق الحوائي أخضر[2]

---

١) عداد اصابع اليد الخمس .

٢) عليك بهذه المرثاة في المشرق (٥٨ [١٩٥٤] : ١٦٣) . اثبتنا في ذيل هذه القصيدة تاريخ ضريح المطران الدهان من نظم الشيخ ناصيف ايضاً ، وهو مؤلّف من ثلاث كلمات : « اغناتيوس السيد الدهّان » وقلنا انه لا ينطبق على السنة التي توفي فيها الدهّان اي سنة ١٨٢٤ ، ولكن اذا بدلنا التاء في اغناتيوس بالثاء فيصبح التاريخ صحيحاً موافقاً للسنة المذكورة .
ان المطران اغناطيوس الدهّان هو من الرهبانية الشويرية الكريمة وكان اسمه فلايانوس ، خلف المطران ثاوفوسيوس بدره على كرسي بيروت الملكية . وقد سامه البطريرك اغناطيوس قطّان اسقفاً في ٢٦ كانون الاول سنة ١٨٢١ . وقد اشتهر بالتقوى

لقد انتصب وهمٌ في اذهان جماعةٍ من الناس في منتصف الجيل التاسع عشر، وربَّما دبَّ دبيبه في الاجيال التي سبقته ، هو ان الفصاحة والبلاغة لا يجري سيلها في غير قناة اقلامهم ولا تسطع شمس المعرفة إلا من أفق افهامهم ، ولا ينحدر ماء الشعر الصافي إلَّا من شلَّالهم ، ولا تحني لغة الضاد رأسها الا تحت اعتابهم كأنَّ الله خصَّهم وحدهم ، من دون عباد الله ، بالعبقريَّة والذكاء فشمخوا بانوفهم وصعَّروا خدودهم ونفخوا اوداجهم وبلغت بهم الدعاوة الى انهم اذا وقعت عيونهم على شعر فصيح لشاعر نصرانيٍّ تنطَّقوا وقالوا : « هذا شعر نصراني » دلالةً منهم على ركاكته ، لانه صدر من غير مصدرهم ، وبهذا القول كفاية لطرحه ونبذه . والدليل على ذلك ان الشاعر بطرس كرامه لمَّا كان في القسطنطينية أطلعه احد شعراء الاتراك على منظومةٍ تركية ترادفت في قوافيها لفظة الخال ورغب اليه ان ينسج قصيدة في العربية على منوالها ، فلبَّى كرامه الطلب ونظم خالِيَّته المشهورة ، ومطلعها :

أمن خدّها أبوزيديّ افتتك الغزالُ فحٌ من الاجفان مدمك الغالُ

وبعث بها الى داود باشا الذي كان والياً لبغداد سابقاً ، فراقته واعجبته فعرضها على احد شعراء بغداد لمعارضتها بقصيدة على مثالها ، فأنكر الشاعر البغدادي حسنها ودلالها لكون صاحبها هو نصراني — وهذا عيبها فقط — وأوحت اليه اخلاقه بان يرد عليها بقصيدةٍ مرسومة بقلم التعصُّب مؤلفة من ثلاثة وعشرين بيتاً استهلَّها بهذا الكلام الذي خاطب به داود باشا :

عبدك تغور عن سيء نعذرا الا فأغثنا من ردّ شعرٍ تنصَّرا
وهل من سيحيٍّ فصيحٍ نعدُّهُ اذا اينع الشرُّ الفصيحُ وأثمرا

فردَّ عليه بطرس كرامه بقصيدة ذات ثلاثة واربعين بيتاً افتتحها هكذا :

لكل امرىء شأنٌ تبارك من برا وخصَّ بما قد شاء كلًّا من الورى

والغيرة والحنكة في سياسة الابرشية . توفي في دير الفديس سمعان العمودي في ٩ تموز سنة ١٨٣٤ ، ودُفن في كنيسة هذا الدير الواقع في وادي الكرم غربي بسكنتا في سفح جبل صنين الذي تسلَّمهُ المطران اثناسيوس الدهَّان من الامير سلمان اللمعي سنة ١٧٤٣ وجعلهُ مصيفاً لكرسي بيروت .

الى ان قال :

كفاني فخراً ان شعري لم يُعَب ... بلحن ولا وزن ولم يجر عثرا
فلا تعجبني اعجباً فان لي ... من العلم والآداب قوماً ومعشرا
من العرب مطبوع الفصاحة والندى ... وعنّى شعري اهل فضل فأسكرا
فدو العجب السامي اذا حيث اني ... فطرت مسيحياً وفضلي قد سرى
ففي حلب والشام رنّت قصائدي ... وشعري في روض الكنانة ازهرا
فأطرب ذا علم ورنّح نعيماً ... وهزّ اخا عشق وأرقص جؤذرا

لقد افحم بطرس كرامه بقصيدته هذه الجوابية الشيخ البغدادي الذي تطاول عفواً عليه ، واراد الانتقاص من شعره فردّ كيده اليه ، وكال له الكيل كيلين ، ومسكه بتلابيبه من الطرفين . ثمّ ارتدّ الى قصيدته البغدادية فكشف عمّا تضمنته من المناقف والمغالط الصرفية والنحوية والبيانية مقيماً الدليل على صحة نقده . وما فات بطرس كرامه من تخطئة هذه القصيدة فلم يفت الكونت اللغوي الشيخ رشيد الدحداح فكرّ عليها بحدّ قلمه المصمّم فشرّحها تشريحاً ومزّقها تمزيقاً دلّ على براعته في اللغة العربية[1].

ذلك ما كان يروى ويسمع في عصر الشيخ ناصيف اليازجي فيتألم له ويتململ متحيّراً متعجباً من قول العارفين بمثل هذا الكلام ، كأن العربية لم تُسلس قيادها الا لاصحابنا ولم يعتلِ مقاعد آدابها الا هم ، فأحس بالشاعرية تتغلغل في صدره فياضةً فوّارةً دفّاقة كسيلٍ منهمر من الماء يهدر في جريه صخّاباً متدفّقاً لا تقف في سرعة جؤول وسدود ولا تثنيه عن اطراده عقبات ولا ينكفّ هدّاراً عجّاجاً حتى ترى السهل مرعاً والجدب مخصباً والحياة متبسمة عن جانبيه ، لذلك ما استطاع الشيخ اخفاء صوت تلك الشاعرية الجيّاشة في صدره فازاح عنها القناع لكل ذي عينين غير معصوبتين ودعا الشعراء الى المنافسة والمنازلة في ساح الشعر غير وجل ولا هيّاب كبر العمائم والقلانس عادّاً نفسه من شعراء الجاهلية وان كان متنصّراً ، وهو فردٌ يجرّ وراءه جيشاً لجباً من القوافي . واذا فاخرت العشيرة بالشاعر لبيد ، فالشيخ ناصيف يحق له ان يفاخر بنفسه ويقول

---

(١) طالع هذه المناقشة العلمية في كتاب « قطرة طواسير » للكونت رشيد الدحداح ، طبعة باريس سنة ١٨٨٠ في ٩٤ صفحة بقطع كبير .

انه أجرى منه في ميدان الشعر واسبق ، وملاحم الاقلام مبسوطة لحلتها وبينها قلم الشيخ يرغي ويزبد صائلاً كرّارًا على كل من تحدثه نفسه بالمصارعة والمواقعة . وهو واثق من نفسه بالانتصار ولو نازله شاعرٌ من فحول الشعراء. فلا يأمل معه الانكفاء ليوصم بوصمة الاندحار والانكسار . وكأن جسمهُ ناء بثقل شاعريته فقاضت بها روحه على الصحائف توشيها اقلامه بالطف المطارف والطرائف ، وعنّت له رقاب القوافي مطواعةً ، فلا يشتكي هذا الشاعر النصرانيّ عند النظم حصرًا ، ويستسهل بماضي العزم وعرًا . وهو :

فخرُ النصارى صاحبُ الفرد التي ضربت على ذكر البديع واحدا[1]

وقد قال لا فضّ فوه :

انا شاعرٌ في الجاهلية نفسهُ عند القريض وان يكن متنصّرا
فوصلتُ من قبل الوصول الى الحمى فرداً يحزُّ من القوافي عكرا
لا اشتكي حصرَ المقال واتي ما زلتُ أجرى من ليدٍ وأشرا
حكّمتهُ في شعر الاوائل واحتمى فاذا عجزتُ دعوتهُ مستنصرا[2]

وقد عاب البعض على الشيخ ناصيف بانه كان من المقلّدين في شعره لا من المولّدين . وقالوا : كثيرًا ما حاول الاقتدا بالمتنبي ، وقد كان معجباً به ففضّلهُ على سائر الشعراء بقوله : ان الشعراء يمشون على الارض ، وأمّا المتنبي فانه يمشي في الجوّ . ولفرط ولعهِ بشعرهِ استظهر ديوانه وعمد على تحليل ما غمض من معانيه . وهل في تقليد المحاسن والمفاتن من منقصة اذا برع المقلّد في تقليده واجاد وافاد ؟ فاذا لم يتمكن الشيخ من ان يصافح المتنبي باليد، فقد حيّاه عن قرب وسمع صوته وزكن تقاسيمه وتقاطيعه وولج خبايا نفسه وتأثّر برقة حسّه فقدر ان يعطينا صورةً جميلةً عنه قريبة الشبه به مما يعجز غيره من بعض الشعراء عن مثل هذا الادراك ، وتلك ميزةٌ للشيخ ترفعه الى طبقات الشعراء المتميّزين.

امّا اولئك الذين يقولون : ان شعر الشيخ من الطراز القديم ليس عليه صبغةٌ من التجديد بالطريقة الرمزية التي هي من نتاج الروح العصرية ، فنجيبهم :

---

١) من ابيات نُقشت على صفيحة ضريحهِ من نظم ولدهِ الشيخ ابراهيم البازجي
٢) (المشرق ٥٨ [١٩٥٤] : ٣٩٧)

بل كانت مستحدثات هذا الزمن في عصر الشيخ ناصيف ؟ واي اثر كان في عهده لهذه الآفاق الواسعة التي تفتقت عن جمال ونور خلت منهما تلك العصور ؟ واذا جاز لهم ان ينعتوا شعر المتنبي « بالقديم » صح نعتهم لشعر الشيخ ناصيف وكانوا بـه محقين ، ومع كل ذلك فقد وفق الشيخ في مناسبات عديدة بين القديم والحديث وأتى بالسحر والبيان . وكأني به قد خرق بثاقب بصيرته حجاب الغيب وعرف ما سيحكم على شعراء ابنـاء الاجيال المقبلة المتقلبة بالعوامل والدوافع ، فقال هذين البيتين :

قلْ لمن لا يرى الاوائل شيئاً ... ويرى للاواخر التقديما
ان هذا القـديم كان حديثاً ... وسيمسي هذا الحديثُ قديما

c

أمَّا الأدباء الذين يزعمون ان الشيخ قد اخفق باحتذائه في مقاماته المسمَّاة « مجمع البحرين » مقامات الحريري والهمذاني وطلع بهذا الحمل ، فكفاه فخراً انه باراهما وجاراهما. وبرزت في كل سطر من سطور مقاماته مقدرته اللغوية وبسطة علمه في لغة الضاد ، وانه انشأ مقامة « اليمامة » وهو راكبٌ ظهر فرسه من بيروت الى بحمدون مصيفه حتى اذا بلغها اسرع الى قلمه القصبي وكتبها في صحائفه . فهل لواحد من الناعين على « مجمع البحرين » ان يضع لنا مقامةً واحدة من ستين مقامة دبَّجتها يراعة اليازجي الكبير شبيهةً باحداها لتقرَّ له بالالمعية وصدق زعمه ؟ فما اسهل الانتقاد واصعب الاحتذاء ! ولنـا ان نقول حالمـا درج « مجمع البحرين » الى عالم القرَّاء تلقَّاه الادباء والشعراء بالمسرَّة والرضى وقرَّظوه نثراً ونظماً منهم الاديب الكبير حسن بيهم ، وقد قال :

هذا الكتابُ فريدٌ في محاسنهِ ... نظير صافنةٍ يزهو بهِ الأدبُ
لو كان في الزمن الماضي لحجَّ لـهُ ... على الضوامر عجمُ الناس والعربُ
كأنهُ روضةٌ غنـاء تُنحف من ... يؤمُّها بثمارٍ دونها الضَّرَبُ
اوصافهُ الدرُّ قـد قالت مؤرخةً ... الدرُّ من «مجمع البحرين» يُكتسبُ

سنة ١٢٧١هـ (١٨٥٤ م)

c

ومما يدعو الى اكبار منزلة الشيخ ناصيف تمسُّكه بعقيدته الكاثوليكية ولم يبع دينه بدنياه وبالرغم من سعة علمه واستطارة شهرته وتقريظ الادباء.

له من جميع ابنـاء المذاهب والمشارب لم يستخفهُ الغرور بل ظل على وقاره وجلالهِ ورصانتهِ ورزانتهِ ورفعـة تواضعهِ واعتصامهِ بحصن دينهِ ، فلم تنفخ الكبرياء من ريحها في انفهِ ولم تنل منهُ عواصف المطامع وزعازع المرابح فتلويه الى المهابط والسفاسف بل استمرَّ على سكونهِ في عبادة ربهِ عالي الجبين نقيَّ الصحيفة . ومن انفس ما جادت بهِ قريحتهُ وخطَّ قلمه تلك القصيدة الميميَّة التي اودعهـا معظم حقائق الديانة الكاثوليكية . وقد برهن الشيخ بهذه القصيدة الصماء على رسوخ قُدَمهِ في عقيدته وسعة خبرته بعلم الكتاب المقدس كأنه من مهرة اللاهوتيين ، وعلى سهولة ومرونة في سبك الحقيقة بقالب شعره بحيث تقرأ هذه القصيدة مهلهلة منسرحة غير مغأفة ابياتها بغموض . ومن العجب ان كل الذين ترجموا الشيخ غفلوا او تغافلوا عن هذه الناحية من مناحي حياته وهي من المع صفاتهِ التي اكسبته العلوَّ في الحياة وفي الممات . قال رحمه الله :

نحن النصارى آلُ عيسى المنتمي ... حسَبَ التأنُّس للبتولـة مريم
وهو الاله ابن الاله وروحـهُ ... ثلثهُ في واحـدٍ لم ننقسم
للآبِ لاهوتُ ابنهِ وكذا أبنهُ ... وكذا هما والروح تحت تنسُّم
كالشمس بظهرُ : جرمُها بشُعاعها ... وبحرّهـا والكلُّ شمسٌ فاعلم

ومنها :

هذا مسيحُ الله فادينا الـذي ... صلبتهُ طائفـةُ اليهودِ كمجرم
بطبيعةٍ بشريَّةٍ قـد ألمتْ ... وطبيعـةُ اللاهوت لم تتألم
حمل الجراح بنفسهِ متمدداً ... حتى تكون جرحنا كلرهم
من قال للاعدا انا هو فـاخروا ... صرعى أليس بقادرٍ ان يحتمي ؟
لو لم يردْ لم يأتِ قطُّ فانـهُ ... ادرى بـذا في علمهِ المتقدم
لاهوتهُ المالي الوجودِ اذا اكتسى ... جسماً فهل ضررٌ لـهُ بتجسم
واذا تألم هل على اللاهوت من ... ألمٍ ذليس اللهُ بالمتألم
لكنَّهُ قـد شاء ذاك لحكمـة ... سبقت بماضي علمهِ المتحكم

وبعد ان تبسَّط الشيخ في مثل هذا الشرح ما تبسَّط داعماً مقالهُ بالبرهان المقنع ، ختم قصيدتهُ داعياً الى تفنيد ادلته ، هكذا :

فاذا اعتبرنا ما ذكرتُ بدا لنا ... بالحقِّ وجـهُ الحقِّ غير مُلثَّم

وهو الذي ما على الثقلين نظلم ... كما تشتي تطلع في سماه الاحكم
ولكلّ معترض علينا مثلنا ... ان كان يدحضه بقول مُلزم

وجملة القول ان الشيخ ناصيف اليازجي كان شاعرًا مطبوعًا مليحًا ولو قُدّر ووُجد في هذا العصر لكان في طليعة الشعراء والمؤلفين البارزين بالرغم من المتنطعين المتسطحين، وكان شعره وما زال ربيعًا زاهيًا زاهرًا مليئًا بالحيوية مرتعًا للنواظر ومتنفسًا للخواطر لا يلابسه غموض ولا يلامسه تكليف كشعر بعض ادبائنا الرمزي والنفسي الذين سبحوا في اجواء الخيال فانتهوا الى بيداء الضلال وعبثوا باوزان الخليل وضروب عروضه فتفككت وتحامت فشت شوهاء عرجاء، وعجزوا عن التعبير في شعرهم عمّا يختلج في قرارة نفسهم بحيث يتطلب مهرة المنجّمين للافصاح عمّا يبطنون. فهذا هو التجديد عندهم الداعي للنفخ به بالابواق وعرض مساطره للباهاة في الاسواق، ألا لا كان هذا الجديد الغامض ونعم ذيّاك القديم الواضح!

ومما ساعد الشيخ ناصيف على استقرار صفاء ذهنه واستمرار توقّد قريحته ومواصلة النظم والتأليف الى اواخر ايامه، السلام الذي اسبطرّت خيامه فوق عتبة بيته فوقته لوافح الرمضاء. فما اضطرّ الى الاستظلال في غير ظلاله فعاش هانئًا بهناء اسرته مستضيئًا بنبراس كتبه واقلامه ومحبرته — ورفّ بلا كتاب كبيت بلا سراج — مستنيرًا عشرتها طربًا بطلعتها مستنيمًا الى مودّتها، لا يخشى من مصاحبتها خيانة ولا يتوقّع من مسامرتها ملامة لانها حريصة على الوفاء بعيدة عن مظانّ المكر والدهاء. ولولا ذلك لَما استطاب الشيخ السهر واستحلى السمر، ولَما درّت علينا اقلامه بمثل هذه الروائع والغرر. وقد حقّ للشيخ ناصيف العبقريّ ان يقول عن نفسه ما قاله محمود الزمخشريّ:

سهري لتنقيح العلوم الذّ لي ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربًا لحلّ عويصة ... اشهى واحلى من مُدامة ساقي
وصريرُ اقلامي على اوراقها ... أحلى من الدوكاه والعشّاق
وألذّ من نقر الفتاة لدفّها ... نقري لألفي الرملَ عن اوراقي
أأبيتُ سهران الدجى وتبيته ... نومًا وتبغي بعد ذاك لحاقي؟

لقد امتدَّ بنا الكلام واوجسنا خيفة ان يدنو الى القارىء السأم ، فأحببنا ان نروّح روحهُ باثبات قصيدةٍ للشيخ نشر منها والدهُ الشيخ ابراهيم ستةً وعشرين بيتاً في كتاب «نفح الازهار في منتخبات الاشعار» الذي ضبطهُ وصحّحهُ وجمعهُ شاكر البتلوني (طبعة رابعة في بيروت سنة ١٨٨٩ في ١٢١ صفحة)) وفي ديوان الشيخ ناصيف طبعة مخايل رحمه واحد وثلاثين بيتاً . واننا ننشر هذه القصيدة الرقيقة بكاملها نقلاً عن مخطوط دير الشير المعهود صفحة ٤٩٠ كما صدرت من قلم الشيخ ناظمها وهي مصدَّرة هكذا :

« وقال (الشيخ ناصيف اليازجي) »

أتظنُّ هذا المال فوق الجسمِ ... إلّا عُبَيْدًا حارسًا دُرَّ الغمِ
وتظنُّ هذا الدُرَّ دُرًّا حولهُ ... ماءٌ كماء البحر مثل الملتمِ
لا والذي خلق المياهَ فما بهِ ... إلّا رُضابٌ كوثريُّ المطعمِ
وأجلُّهُ عمّن اقول بأنَّهُ ... شهدٌ جنتهُ النحلُ لا يروي الظمي
تَنلَ الروايةَ طيبٌ يتطفو وما ... ذُقنا وكان الوردُ أبردَ مغنمِ
ألوى عليَّ فصبَّني وضبثتُهُ ... وصدورنا بصدورنا لم تعلمِ
أهوي عليهِ وفيَّ عفَّةُ يوسفٍ ... حتى يميلَ وفيهِ عفَّةُ مريمِ
فيروح بين صبابتي وحنينهِ ... وأدوح بين حديثهِ وتبسّمي
خضنا ملياً في الحديث كما جرى ... وكأننا للشوق لم نتكلّمِ
حتى رجعتُ كما رجعتُ واخمصي ... متأخرٌ في نيَّةٍ المتقدّمِ
يا ليلةً مسح الزمانُ ببعضها ... بعض الساح وليتهُ لم يندمِ
قد كنتُ ارجو مثلها فيلمّهُ ... والحادثات تنول طرفكَ فأسلمِ
حتى دخلتُ الدار ساعة غفلةٍ ... وعرفتُ ربع الدار بعد توهُّمِ
فكأنَّ كلَّ الدهر مدَّة لحظةٍ ... وكأنَّ كلَّ الارض دارة درهمِ
لشمت ثرى اوطاها قدمي فلا ... كبرٌ برأسي ان يُقبّل منسمي
وتحاسدت أذني وعيني قبلا ... لمستْ يدي فالكلُّ يحمدُ معصمي
يا هل ترى علمت بناتُ عشيرتي ... اني لقيتُ الشمسَ بعد الأنجمِ
ان كان بعدي ساءهنَّ فسرَّني ... يا غربتي طولي ولا تتصرَّمي
يا أمَّ معتنق الثريا انني ... عانقتُها وكُفيتُ قول تقدّمي
فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرتُ ما ... لم تنظري وعلمتُ ما لم تعلمي
ولقد عشقتُ فطبتُ نفساً فاقبلي ... عذري ولستُ اقولُ يا أمّي أرحمي

واذا سمعت بسمت قلبي في الهوى ... فهي الخمر وعجرها لا تنهي
أترين لي أمّ تنوح ادا الدجى ... حنت وما سمعت هناك ترثي
فارقتها فنقبت أشقّ مهجة ... منها وحزنا في الصفات فهلمي

ولقد جلستُ الى الفتاة سحرًا ... ووشاتنا من غافلين ونُوَّمِ
ولطالما جلست الينا قبلها ... طيفٌ وكان الطيفُ غير مُسلِّمِ
اخذت بسمي قبل رؤيتها وقد ... أسمتها الانشادَ قبل ترنّمي
لو كنتُ اعرفُ وجهها صوّرتهُ ... في مقلتٍ بسوادها لم تعلمِ
غاصت بلجّة نومها وتنبّهت ... والسحرُ في العينين غير مهوّمِ
فكأنّ بحر النوم بحرٌ احمرٌ ... حتى انت وخدودها كالعندمِ
بالله يا راح الفؤاد وروحهُ ... من اين انتِ واين انتِ فعرّجي
لا تنظري عُرضًا[1] اليّ فتجرحي ... قلبي وجرح المُرض اكبرُ مؤلمِ
اني لانظرُ منكِ لينَ معاطفٍ ... مثل المياهِ فأين يبسُ الأعظُمِ
ويُقال انك من ترابٍ فانظري ... هذي النهود وان قنعتِ فسلّمي
بالله يا كأس المدامِ تباعدي ... عنّا ويا ريح الخزامِ تنسّمي

دارت فكاهتها وأعبق نشرها ... ماذا الملافُ وما لطائمُ متشمِ[2]
حوراء تضربُ بالسيوف جفونها ... ولحاظها ترمي القلوب بأسهُمِ
قطرت دمًا من فوق وجنتها فما ... كذبت علينا انهُ لونُ الدمِ
عينُ الغزالة عينها وجبينها ... لا ذاتها من رقّةٍ وتبسّمِ
ولطالما نفر الغزال وما درت ... كيف النفور وعرضها لم يُكلَمِ
عاتبتُها فاستضحكت وعتابها ... جهلٌ وكيف عتاب من لم يأثمِ
ما كنتُ اختارُ العتابَ وانّما ... كنّا وكانت حيلة المتكلّمِ
حتى رنت وكأنّ هُدبَ جفونها ... وسواد قلبي قطعةٌ لم تُنعمِ
وهفتْ وقد اخذت براحتها يدي ... لا بل فؤادي اخذةَ المتحكّمِ
ولربَّ جرحٍ ابرأتهُ يمينها ... فحلفتُ لا اجبرتُ وجهَ المرهمِ
وشفتْ مريضًا كان منهتكًا بها ... قِدمًا فعاد كأنّهُ لم يسقمِ

---

١) نظر اليه عُرضًا : . . . (هنا كلمتان مقطوعتان بقراض التجليد)
٢) الملاف : الخمر . واللطائم : . . . ومتشم امرأة . . . (هنا كلمات مقطوعة ايضًا بالمقراض) .

فه سيّدتي قضيتِ بما اقتضى شرعاً وعندي حبّذا ان تظلمي
لمّا حلوتِ حلّت فمالكِ كلّها بافهِ هل لكِ جرعةٌ من علم
هانت عليَّ فيا جراحُ تنثني بعد اللقاء ويا متونُ تقدّمي

٥

بافهِ يا ريح الصبا قبل الضحى ان جزتِ هاتيك الديار فسلّمي
قبّلا عنّا إلّا وقفتِ بمدرها بين النهود ولا اقولُ لكِ اثلمي
وضممتِ معطفها وقلتِ لها ترى كم فيكِ عزة حسرةٍ من مُغرَمِ
هيهات اسلوها وقد بخعت على قلبي بخاتم ثغرها المتبسّمِ
وهويتُ نظم الشعر لمّا ابصرت عيني طلاوة دُرّهِ المتنظّمِ
لو لم يكن للشوق من سببٍ كفى ذاك الوداع ومدّ ذاك المعصمِ
ان كان قتلُ النفس غير محلّلٍ قولوا لها فالوصلُ غير محرّمِ

افادات تاريخية

رأينا ان نثبت هنا بعض افادات تاريخية جليلة عن الشيخ ناصيف اليازجي استقيناها من مورد الراوية المعروف الفيكونت فيليب دي طرازي .

ان الذين رثوا الشيخ ناصيف اليازجي على المقبرة هم المعلّم سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام ، وكان اذ ذاك كبير الاساتذة في المدرسة البطريركية في بيروت (وهو من تلامذة الشيخ ناصيف) والمعلّم بطرس البستاني والمعلّم شاكر شقير . ورأس حفلة الجنّاز في كنيسة مار الياس للروم الكاثوليك في بيروت المطران اغابيوس الرياشي ، وأبّنهُ في الكنيسة البروتوبروزفيتروس (اي المتقدّم في الكهنة) فيلبُس نُعَير من زحلة رئيس المدرسة البطريركية وقتئذٍ . وقد نظم سليم تقلا مرثاةً خاصة لمأتم الشيخ .

وكان بيت الشيخ ناصيف في محلّة زقاق البلاط ببيروت، وموقعهُ في الوقت الحاضر منزلٌ جديد يسكنهُ ميشال بن رافائيل فرعون . ومشت الجماهير الغفيرة من بيتهِ في زقاق البلاط الى كنيسة مار الياس ومنها الى المقبرة في حيّ الزيتونة ببيروت ، وقد أقفلت بيروت بأسرها حدادًا عليهِ وتعظيماً لمنزلتهِ العلمية ومشت في جنازتهِ . وكان كلُّ واحدٍ من تلامذة جميع المدارس ، وبينهم التلميذ

طرّازي ، حاملاً بين يديه كتاباً من تأليف الشيخ ناصيف وهم ينشدون مرثاة سليم تقلا بلحن محزن .

ومما رواه لنا القيكونت دي طرّازي ، ان المعلم سليم تقلا كان خادماً في المدرسة الوطنية في بيروت لصاحبها المعلم بطرس البستاني ، وكان الشيخ ناصيف في ذلك العهد يلقي دروساً في العربية على تلامذتها . وكان سليم تقلا لرغبته في العلم ، يتحيّن الفرص ويقف وراء شبّاك احدى غرف المدرسة التي كان يلقي فيها الشيخ ناصيف دروسهُ على التلامذة منتبهاً الى دروس الشيخ الذي لمحهُ مرةً وراء الشباك وأدرك قصدهُ ، وكان يعطف عليه لانهُ ابن ضيعته كفرشيما ، فانتبهرهُ وسمح له بحضور الدروس مع التلامذة . هكذا تعلّم هذا الشاب الذي اصبح اديباً كبيراً في عهده . وهذه جريدة الاهرام التي انشأها بتاريخ ٥ آب سنة ١٨٦٧ في الاسكندرية لم تزل راسخةً بعبادئها الرشيدة رسوخ الاهرام الفرعونية وهي اليوم عميدة جميع الجرائد العربية في العالم شرقاً وغرباً .

وبعد ان تلقّى سليم تقلا العلوم العربية في المدرسة الوطنية ، عيّنتهُ المدرسة البطريركية فيها استاذاً اول بعد وفاة الشيخ ناصيف اليازجي .

تواريخ للشيخ ناصيف اليازجي

ومما ضمّ مخطوط دير الشير ، بكفين – سوق الغرب ، عدة تواريخ[1] من نظم الشيخ ناصيف اليازجي ، لم تُنشر في دواوينهِ الثلاثة ، وهي مسطّرة في آخر قصائده في هذا المخطوط . واليك نصها :

« ولهُ (للشيخ ناصيف اليازجي) تاريخ لدار الامير قاسم الشهابي » (ابن الامير بشير الكبير)

يا ربوة الوادي التي قد اصبحت ... من خضر الوادي مكانَ الخاتمِ
ماذا يقول بكِ المؤرّخ واصفاً ... دارَ الشهابيّ الامير القاسمِ
١٧٨ ٢٠٥ ٣٤٩ ٢٨٢ ٢٣٢

سنة ١٢٦٧ هجرية

١) المخطوط ص ٤٩٣–٤٩٨

« وله تاريخ بناء في دير المخلص »

قامت بحول الله خيرُ منازلٍ نظرُ الكحيل[1] بها مديدٌ وافرُ
بشرى الترابل فان في تاريخها ابدًا بها وجهُ المخلّص ظاهر

« وله تاريخ لوفاة ميخائيل (فضّول) الجبلي البيروتي »

حوى هذا الثرى قبرًا منيرًا أحالتهُ المنونُ الى سُهَيْلِ
ولكن حرّر التاريخُ فيه لميخائيل فضّول الجبيلي
٨٦ ٩١٦ ٧٤١ ٩٥

سنة ١٨٣٨

« وله تاريخ لوفاة عبّود ساروفيم الصوري »

لقد اصطفاهُ اللهُ من دار الفنا وأحلّهُ دارَ البقاء المُنتظرْ
فابشرْ وقُلْ لمؤرّخيهِ بأنّهُ عبّود ساروفيمُ كُلّلَ بالظفرْ
١٢١٣ ٨٠ ٣٩٧ ٨٢ ٥٨

سنة ١٨٣٠

« وله تاريخ لوفاة بسترس بك انطون بسترس »[2]

كم حسرةٍ يا ابن انطونٍ عليك وقد ترلتَ هذا الثرى والحيُّ منك خلا
أوحشتَ منك ديارًا كنتَ جحتها بالامس واليوم قد آنستَ دار بلا
أدركت بسترسَ الجدَّ القديم لكم لكن تركتَ أسىً في قلبنا علا
وحين غادرتَ اوطانَ الفناء لنا دارًا ولاقيتَ من دار البقا بدلا
نادى ثرًى انت بالتاريخ نازلهُ برحمةٍ الله يا مَن في الثرى نزلا
٨٨ ٧٤١ ٩٠ ٩٠ ١١ ٦٦ ٦٥٠ ٩٣

سنة ١٨٢٩

« وله تاريخ لوفاة انطون ابن اخي هذا المتوفّى »

بكت العيونُ وقد مضى متبسّمًا لمّا قضى في نعمة الروح القُدُسْ
وتمثّل الفردوس في تاريخهِ لدخول انطون بن جرجس بسترُسْ
٧٢٢ ٢٦٦ ٥٢ ١١٦ ٦٧٠

سنة ١٨٢٦

---

١) اراد بالكحيل : « برئيس المقام . . . » (هنا كلمات مشطورة بغراض التجليد) (في الاصل) .

٢) وهو الذي رثاهُ الشيخ بقصيدةٍ مرّت بك (المشرق ٥٨ [١٩٥٤] : ٤١٣)

« واقترح عليه تاريخ آخر له فقال »

من بعد يومك ساءت الايامُ فالصبرُ بعدك والمنامُ حرامُ
وبكى الزمانُ على صباك وقد اتى بدء الضياء عليك وهو ختامُ
يا ويل قلب ايبك لو ودّعته فشنى كلومَ الشوق منك كلامُ
فعليك يا انطونُ افضلُ رحمةٍ وسقى ضريحك في الصباح غمامُ
وبرى الحميمُ مؤرّخاً فاذا به برَدٌ على صفحاتهِ وسلامُ
٧ ٧٨٢ ٢٠٦ ١١٠ ٥٨٤ ١٣٧

سنة ١٨٢٧

« وله تاريخ لوفاة الشيخ فرنسيس الدحداح »

هذا الضريحُ الذي انوارهُ سطعت في طيّهِ التبرُ ليس الترب مرمورُ
مهذّبٌ من بني الدحداح سيرتهُ لها على صخرة الانجيل تأسيسُ
قضى الحياة بتقوى الله مغتصباً لم يُطغهِ الجسمُ والدنيا وابليسُ
حتى انتهت بالتقى ايامهُ ومضى الى نعيم بهِ لا يُعرف البوسُ
وعندما حلَّ في هذا الضريح وقد دارت به تحتفُ الاملاك قُدّوسُ
قام المؤرّخُ أملى في صفائحهِ عليك رحمة ربّي يا فرنسيسُ
٨١ ٩٠ ١٩٤ ١٣٢ ٦٤٨ ٢١٢ ١١ ٤٦٠

سنة ١٨٢٦

« وله تاريخ لوفاة المعلم الياس إدّه »

حكمَ الالهُ بما ارتضى واختار للفردوس عبدَه
والحالُ قال مؤرّخاً هذا رضى إلياس إدّه
٧٠٦ ١٠١٠ ١٠٢ ١٠

سنة ١٨٢٨

« وله تاريخ لوفاة يوسف الشلفون »

لما قضى ومضى الى دارِ البقا نفساً وذاق الجسمُ كأسَ منونِ
خطّت يدُ الانوار تأريخَ البها من حول تربة يوسف الشلفونِ
٣٩ ٩٠ ٤٤ ١٠٠٢ ١٥٦ ٤٩٧

سنة ١٨٢٨

« وله تاريخ دار شيخ حسين [illegible] »

يا حسن دار بناها حسين بن سعاده
تأريخ الدار قالت دار الهنا والسعاده
٢٣٦ ٥٤١ ٢٠٥ ٨٧ ١٧٧

سنة ١٢٦٦ هـ

« وله تأريخ بناء للشيخ يوسف حبيش »

لما بناهُ يوسفُ بعناية الملك النبي
قال المؤرخُ دُمْ لهُ بالرغد والعيش الهني
٤٤ ٣٥ ١٢٣٧ ٤١٧ ٩٦

سنة ١٨٢٩

« وله تأريخ لوفاة مرتا بنت عازر عكّاوي »

سقتك غوادي الصبح لطفاً وأنعما ألا يا ضريحاً نلتَ ذخراً مكرّما
وبشراً فقد أودعت تربك درّةً بجا اصبح النقّادُ صبّاً متيّما
فتاةٌ لها بين الملائك رفعةٌ وقد تركت للناس في الارض مأتما
فقال على علم مؤرّخها جما لقد لحقت مرتا بعازرَ في السما
٨ ١٣٤ ٥٣٨ ٦٤١ ٢٨٠ ٩٠ ١٣٢

سنة ١٨٢٣

« وله تأريخ لزواج الامير يوسف الشهابي »

لك من نعيم العيش ما لا يوصفُ وعليك ظلُّ اللطف لا يتكفكفُ
خُذْ ما بدا لك من زمانك لذّةً وانعم فدهرك مسعفٌ ومُنصّفُ
انت الشهابُ يُنير وجهك في الدجى وبك السعودُ جميعها تتألّفُ
ما قطّ تخطرُ بين اعطاف الغنا إلّا وكادت غيرةً تتقصّفُ
يستنطقُ الشعراء رحمك مقبلاً حتى يقول الشعرُ اين الموقفُ
ولطالما نظموا بمدحك أسطرًا فاذا هما وكأنّها هي أحرفُ
لا تعجبُ الشهباء ان قارنتها فالشهبُ عادتُها قرانٌ يُعرفُ
يا حبّذا هذا القران وكيف لا وبه الموالي الحاشيةُ تحلفُ
صفت الحياةُ به ورقّ قوامها وسقا الزمان فلم يزل يتلطّفُ

وتقدّم التأريخُ قبلي قائلًا لكمُ التهاني بالصفا يا يوسفُ
١٤٢ ١٤٢ ٩٠ ٤٩٧ ٢٠٤ ١١ ١٥٦

سنة ١٢٤٢ هجرية

« ولهُ تأريخ لميلاد ابنهِ الامير محمود »

لمّا أتى النجلُ الشهابيُّ الذي فتنَ الكواكبَ وجههُ المسعودُ
نادى بهِ التأريخَ ينشدُ قائلًا عشْ بالهنا والسعد يا محمودُ
٣٦٤ ١٤٢ ٣٧٠ ٨٩ ١٧١ ١١ ٩٨

سنة ١٢٤٥ هجرية

« ولهُ تأريخ لدار الامير اسماعيل الشهابي »

اذ بناها المولى الشهابيُّ اسما عيلُ نسلُ العلي من قد تسامى
جاء بعضُ المؤرّخين ونادى ادخلوا مرحبًا وقولوا سلامًا[1]
٧١ ٦٤٢ ٢٥١ ١٤٩ ١٣٢

سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م)

« ولهُ تأريخ لضريح يوسف سيُّور في بيروت »

هذا ضريحُ الفاضل الشهم الذي قد فاز بالمجد الذي لا يُوصفُ
أبكى بني سيُّور فيضَ دمٍ كما أبكى البرايا ادمعًا لا تنشفُ
لمّا استعدَّ لوفدهِ جندُ السما وبدت ملائكةُ العلي ترفرفُ
نادى بهِ جبريلُ في تأريخهِ اني بشيرٌ لا تخفْ يا يوسفُ
٦١ ٥١٢ ٣١ ١٠٨٠ ١١ ١٥٦

سنة ١٨٥١

« ولهُ تأريخ لقبر يوحنا ارقش في بيروت ايضًا »

هذا قبرٌ لابن ارقشَ نور العفاف عليه فائض
غصنٌ تكسَّر في الصبا سرُّ القضا أرّختُ غامضْ
١٨٤١

سنة ١٨٦١

١) تأسف لسقوط ورقة او ورقتين من هذا المخطوط ضاعت معها عدّة تواريخ للشيخ ناصيف اليازجي .

« وله تاريخ ... حسني »

حار الطبيعة منه ... في تاريخه قد ... المعشرات
وبروضة الفردوس حل ذرحوه ... ما يزال مثلث الرحمات
٤١ ٤٨ ١٠٧٠ ٦١٠

سنة ١٨٣٩

« تاريخ للمستشفى (المستشفى) المعمّرة بدمشق ، من طوباويته (البطريرك مكسيموس مظلوم) ايضاً للشيخ ناصيف نفسه »

مكسيموسُ المظلومُ بطركنا ابتنى ... داراً لطبّ مريضنا كالمحرس
شملت محبتهُ الحسود كما اقتضى ... تأريخُ غيرتهِ وحبّ الانفس
١٦١٥ ١٦ ٢٢٢

سنة ١٨٥٣

« ولهُ ايضاً تأريخ لدار ابتناها السيد غريغوريوس عطا في ابرشيّته بقرية بيرود » .

غريغوريوس بن العطا قطرانُنا ابتنى ... لنا خيرَ دارٍ حبّذا العملُ المرضي
على بابها خطّ المؤرخ انّهُ ... بنى احد الاقمار برجاً على الارض
٥٦ ٥٣ ١٣ ٣٧٣ ٢٠٦ ١١٠ ١٠٢٢

سنة ١٨٦٣

ومما عثرنا عليه في عين دارا عند حضرة الخوري بطرس الخوري بدر كرّاس خطي قديم يتضمن عدة تواريخ لمولد وزواج ووفيات بعض الامراء الشهابيين مخروم الاول والآخر من نظم الشعراء : الشيخ احمد البربير ونقولا الترك والخوري ارسانيوس الفاخوري وبطرس كرامه والشيخ ناصيف اليازجي والياس أدّه وحنا بك الاسعد الصهبيّ والشيخ درويش عبد الاحد باز . وبين هذه التواريخ ثلاثة للشيخ ناصيف وهي :

الاول

« وقال الشيخ ناصيف اليازجي مؤرخاً وفاة الامير عبد الله حسن »

امير المجد عبدالله اضحى ... تريلَ الترب عن حكم القضاء

قضى بافه مسروراً امينًا وأبقى بعده غصص البكاء
ولما سار نحو العرش فوراً ونال المجد في دار البقاء
وجدنا منطق التأريخ صدقًا شهابُ الارض اصبح في السماء
١٩٥ ٣٠٨ ١٠٣٢ ١٠١ ٩٠ ١٣٢

سنة ١٨٥٨

الثاني

« وقال مؤرخاً وفاة الست صفا قرينة الامير اسعد حمود شهاب »

قد من آل الشهاب اميرةٌ يا لها هذا الضريحُ تشرفا
حوت النعيم فقال تأريخي بها بانت صفا بجوار شمعون الصفا
٨ ٨٠٣ ١٧١ ٢١٢ ٤٦٦ ٢٠٢

سنة ١٨٦٢

الثالث

« وقال مؤرخاً وفاة المرحوم الامير سعيد خليل بشير الذي توفي في بيروت ودُفن في مقبرة الموارنة بقبّة مخصوصة شرقيها بناحية المدوّر ، ونُقش على ضريحه بالقبّة المحرّرة »

هذا الاميرُ السيد الحظّ تخدمهُ ملائك الله فوق العرش تجتمعُ
قد قام ارقام تأريخ تحيط به ان الشهابي على الافلاك يرتفعُ[1]
٧ ٤٢٧ ٥١ ٣٤٩ ١١٠ ١٦٣ ٧٦٠

سنة ١٨٥٧

ديوان الفارض بخط الشيخ ناصيف اليازجي

عثرنا على نسخة من ديوان عُمَر بن الفارض عند حضرة الوجيه وشبه عيسى ابي ضاهر شديد من مراح شديد (بلاد البترون) بخط الشيخ ناصيف اليازجي بالحرف العربي المائل الى الحرف الفارسي كما سترى . منسوخ بالحبر الاسود على ورق عبّادي سميك وعناوينهُ بالحبر الاحمر ، مجلّد بجلد غير متين رثّ لتقادم عهده . يقع في ٧٦ صفحة ، طولهُ ٢٢ سنتمترًا بعرض ١٥ س . وعرض

١) لا ينطبق على تاريخ سنة ١٨٥٧ المذيل بها ، بل على سنة ١٨٦٧

هامشهِ ستمئات . تحتوي كل صفحة منهُ ٢٤ بيتاً من الشعر وطول شطر البيت ٤ سنتمترات ، والصدر والعجز ٤ سنتمترات ونصف السنتمتر مع الفرجة بينهما . وقد تعلوه في اطراف بعض ورقاتهِ وفي باطن هامشهِ الا انها لم تصل الى كلمة . وانتهَ الشيخ ناصيف نسخهُ في ٥ آب سنة ١٨٢٠ . وقد سُطِّر على ظهر الصفحة الاولى منهُ عدَّة اشعار بخط مختلف ملتقطة من هنا وهناك . ويبتدى. نسخ الديوان على الوجه الثاني من الورقة الاولى منهُ ، وصُدِّر بهذه الآية بحرفٍ ثخين :

(بالحبر الاسود) « بسم الله الرحمن الرحيم وبهِ نستعين »

ثمَّ (بالحبر الاحمر) « وبعد فهذا ديوان الشيخ الامام العالم العلامة شرف الدين قطب العارفين ابي حفص عمر الفارضي السعدي »

وفي الصفحة ٧٤ من هذا الديوان الخطي ، قصيدة للفارضي لم ارها مطبوعةً في ديوانهِ المشروح بقلم البواريني وعبد الغني النابلسي المطبوع في الخامس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٨٥٣ بطبعة شركة الفعلة في مرسيلية . وهذه هي القصيدة :

قُم ما صنع الغرامُ بقلبهِ	أودى بهِ لمَّا ألمَّ بقلبهِ
لبَّاهُ لمَّا ان دعاهُ وهكذا	من يدعهُ داعي الغرام يُلبِّهِ
ان الذي لا يستطيع لمجيبهِ	ردَّ السلام فبان شككت فمجَّ بهِ
ظبيٌ من الاتراك ما تركت ظبي	الخاظهِ من سلوةٍ لمحبِّهِ
يا ما أمليحهُ وأعذب ريقهُ	وأعيذهُ وأذلَّني في حبِّهِ
بلى ما ألطف وردةً في خدِّهِ	وأرقَّها واندَّ قسوة قلبهِ
ان كنت تنكر ما جناه بلحظهِ	من سلبه يوم النوير فسلْ بهِ
او شئت ان تلقى غزالاً اغفراً	في مربعِ أسد العرينِ فسرْ بهِ
يا للرجال اظلُّ اطلبُ قربهُ	عجباً وأصلُ بليَّتي من قربهِ
نادى بنفسجُ عارضيهِ معارضاً	يا عاشقين تزوَّدوا من قُضبهِ

وفي آخر هذه القصيدة كتب الشيخ هذه الجملة : « لله الحمد سبحانه » .

ثم كتب اسفهُ بهذه العبارة بحبر اسود وهي بحرفها الواحد :

« تم الديوان بعون الملك الرحمن بقلم العبد الفقير الى مولاه الواجي نيل

عفوه ورضوانه ناصيف اليازجي رحمه الله موافقاً فراغه خمساً خلون من شهر آب الناهج من اشهر السنة العشرين بعد الثماني مائة والالف م » .

ثم تأتي هذه النبذة بخط الشيخ ايضاً بحبر احمر واسود وهي .

اسماء ساعات النهار عند العرب (ص ٧٥)

« فالساعة الاولى : الدرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الاصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ويقال فيها ايضاً البكور ثم الشروق ثم الاشراق ثم الراد (الرأد) ثم الضحى ثم المتوع ثم الهاجرة ثم الاصيل ثم العصر ثم الزوال ثم الطفل ثم الغروب »

« وقيل : ان الاصل في قولهم في المثل : لا ناقة لي في هذا ولا جمل . ان الصدوف العدولية كانت زوجة زيد ابن الاخنس وكان له بنت من غيرها تسمى القارعة كانت تسكن بمنزل منها في خبا (خباء) اخر (آخر) فغاب زيد غيبة فلجج بالقارعة رجل عذري (عذري) يدعى نشيأ وطاوعته . فكانت تركب كل عشية جملاً لابيها وتنطلق معه الى ثنية بيستان فيها . ورجع عن وجهته زيد فعرج على ماهنة احمها طريفة فاخبرته بريبة في اهله . فاقبل سايرًا لا يلوى (يلوي) على احد حتى دخل على امرأته . فلما رأته عرفت الشر في وجهه . فقالت له لا تعجل واقفْ الاثر لا ناقة لي في هذا ولا جمل . فصار مثلاً يضرب في التبرؤ عن الشيء » .

ثم يثبت الشيخ هنا في هذه الصفحة ٧٥ قصيدة للفارضي : « قفْ بالديار وحيِّ الأربع الدُرُسا . . . » وهي اربعة عشر بيتاً تنتهي في الصفحة ٧٦ ، وفي آخرها كتب اليازجي ثلاثة ابيات في رثاء الفارضي وذكر في آخرها انها بقلم الناسخ (اي بقلمه) وهي معنونة هكذا :

« قال بعضهم يرثيه »

« جز بالفراقة تحت ذيل العارض ... وقل السلام عليك يا ابن الفارض »
« ابديت في نظم السلوك عجائباً ... وكشفتَ عن سرٍّ مصونٍ غامضٍ »
« وشربت من بحر المحبة والولا ... فرويت من بحرٍ محيطٍ فائضٍ »

« بقلم الناسخ ابنًا عفى عنه »

[illegible] ايضاً نُعمي عنهُ »

ويظهر من هذا الديوان انصل ليد ارسانيوس الخوري من كور (بلاد البترون) تطبع سقمه في خلال ورقاته اربع طبعات . وقد عمّى هذه العبارة في ذيل الصفحة السادسة والسبعين الاخيرة من هذا الديوان بخطه العربي الجميل وهي :

« ملك ارسانيوس الخوري من كور (بلاد البترون) حرّر في اواخر شهر ايلول سنة ١٨٤٣ مسيحية الموافقة سنة ١٢٥٩ هجرية الف ومايتان وتسعه وخمسين هجرية ه » (الختم)

وعلى هذه الصفحة عدة اشعار ايضاً بخطوط مختلفة .

ويظهر ان الشيخ ناصيف بعد ان ختم هذا الديوان باثبات اسمه على ما رأيت ، اطلع على قصيدة الفارضي : قف بالديار وحيّ الاربع الدُرُسا . . . وعلى ساعات التهاون فنقلها في الصفحة ٧٦ وذيلها بقلمه . وقد طبعنا ثلاث صفحات من هذا الديوان على الزنكغراف منها الصفحة المتضمنة اسم الشيخ ناصيف للوقوف على خطّهِ منذ مئة وثلاثين سنة .

ولا حول ولا قوّة الّا بالله العظيم .